

الشاعر المؤدب

تاغور الهندي ومدرسته

دهش الغربيون كثيراً حينما اهدى المجمع العلمي الكبير جائزة الشرف الاولى في عالم الادب للعالم الهندي وابندراناث تاغور الشاعر المشهور وذلك لظهور اسمه فجأة في عالم الادب ولاعتقادهم ان الشرق عاجز عن ابراز امثال هؤلاء النوابغ . وقد وقتت في احدى المجلات الاميركية على مقالة يصف فيها الكاتب مدرسة طهبا الشاعر جمعت في ادارتها ونهجها الاساليب الغربية والشرقية في التهذيب والتنقيف فرأيت بانها اذاعة لفضل الشرقيين وحثنا على السير في ميدان العلم والادب من عهد بعيد فلما السحب تاغور من ميدان السياسة شعر بوجود انقلاب كبير في حالة البلاد الهنديية — انقلاب يتطلب تضحية تامة وحياة مقدسة لبث روح نشيطة في نثر الامة . فرجد بعد الدرس الطويل والتنقيب الكثير انه اذا كانت من دواء شاف لامراض بلادهم فالدواء هو التهذيب المملوء بالحرية والمحبة التهذيب الذي يقوي العقل والادراك ويرقي الآداب وينمي في المرء شخصية كبيرة ذات مبادئ سامية وافكار راقية . وقد ضرب طرق التعليم المنتشرة في بلادهم بقول له مشهور وهو « ان الطريقة التي تدرس فيها فاشئتنا الجديدة مبادئ القراءة والعلوم هي حمل نفيل على عقولهم البريئة من كل ذنب وعذاب مبرح . فالواجب ان لا نحمل اساليبنا الهنديية تماكس غاية العلم الرئيسية بل علينا ان نسمى لجعلها بسيطة طبيعية بقدر الامكان »

وتحقيقاً لهذه الاملاتي اسس مدرسة في بلور ميتدنا باربعة طلبة وكان قبل الشائها بوقت قصير قد وزع منشوراً على قومٍ يشير فيو الى الغاية من تأسيسها قال :

« احياء روح التهذيب القديمة في البلاد قد صنعت على تأسيس مدرسة يشر فيها الطلبة بان هنالك شيئاً اسمى وارقى من التفوق في العلوم والفنون الا وهو معرفتنا معرفة جيدة للعنوا التي نعيش فيها اعني بذلك نبي كل وسائل اللذة والترن الموجودين في المدارس الحاضرة وتثشة الطلبة على العيشة البسيطة الصحيحة . فلهدا لا يوجد في مدرستي مقاعد يجلس عليها الطلبة بل حصر مفروشة

تحت الأشجار فيعيشون عيشة بسيطة جداً. والفرض الرئيسي من إقامة مدرستي هذه في سهل واسع كبير هو عزلها عن حياة المدن المصيبة فأرى الأولاد يمشون مع النباتات والأشجار بينما يحضرون في المدن ضمن جدران جامدة تحق طبيعتهم الحية النشيطة. ولا يفهم من هذا أنني أقبل دائماً أحسن الأولاد عقلاً وادبهم ادراكاً بل كثيراً ما يرسل لي أولاد ضعيفو الإدراك يكون والدوهم قد عجزوا عن تربيتهم وتأديبهم.

أما نهج المدرسة اليومي فيختلف كثيراً بين كثير من مدارس العلم فينهض الطلبة والأساتذة من نومهم في الساعة الرابعة ونصف صباحاً فيرتبون أسرهم ويخرجون مرتين ترانيم جميلة في مدح خالق العالم. وبعد ان يستحموا ويلبسوا ارديتهم الحريرية البيضاء يجلسون للصلاة والتأمل والتفكير ثم يتناولون طعام الصباح وهو مؤلف من أرز وحليب أو طعام آخر خفيف وبعد ذلك تبتدىء الصفوف الساعة ٧ فيحضر كل طالب حصيرة الصغيرة ويفرشها تحت الشجرة يتدثون مثائبهم المتعددة من ادب وتاريخ وجغرافيا بلا كتب الا اذا كانت تطلب تعاريف عملية كالطبيعيات والكيمياء فيعمدون الى غرفها. وتلقن لهم المثائل شفاهاً اما عدد الطلبة في الصف الواحد فلا يتجاوز العشرة وكثيراً ما يصرف الاستاذ كل الوقت على طالب واحد

ونحو الساعة العاشرة ونصف اي بعد درس ثلاث ساعات متواصلة يتفرق الطلبة والأساتذة وهم ينشدون الاناشيد المختلفة للاقتسام والاستحمام وهناك يتقون يرتعون الى الساعة ١١ ثم يتناولون الغذاء يذهبون الى المكتبة المطالعة والدرس او يصرفون الوقت كما يريدون. وفي الساعة الثانية بعد الظهر يجتمعون مرة ثانية تحت الأشجار للدرس ولا يسمح للاستاذ ان يضربهم او يشتمهم مهما كانت جرائمهم وذنوبهم وتنتهي مثائل النهار عند الساعة الرابعة بعد الظهر فيتناولون طعاماً خفيفاً وبعده يندفمون بكليتهم الى الالعاب المختلفة كالفوت بول والكريكت والتنس وغيرها من الالعاب المشهورة. ففي الالعاب الرياضية العسكرية والدروس المفيدة نال هؤلاء الطلبة قصب السبق على كثير من المدارس في البلاد. ولتبريدهم الهواء البارد والحار يجيرون على الركن عدة اميال في الايام الحارة والباردة ويعرضون اجسامهم للظن المنهر وفي كثير من الاوقات يعيشون

أكثر من عشرين ميلاً دفعة واحدة ولا يسمح لأحد بأن يلبس احذية او جوارب الا بأمر خاص من الطيب

ويزور هؤلاء الطلبة القرى حولهم فيعلمون الهند الاصلين ديانتهم بطريقة بسيطة ويرشدونهم الى اساليب النظافة والاعتناء. وقد اقاموا في كثير من القرى المدارس الليلية لتعليم مبادئ القراءة والعلوم وانشاوا الاكواخ البسيطة للاهالي الموزين بلا مكافأة او مجازاة

وبعد انتهاء الالام يستحم كل واحد منهم ثم يلبس لباسه العادي ويصرف نحو نصف ساعة في الصلاة والتأمل والابتهاج ويتلو ذلك المشاه ويحب ان يكون من البقول ولا يسمح لأحد ان يشرب الخمر او يأكل اللحم او يشوه بكلام بذيء او يلجأ الى المجاذلات الدينية لئلا يعكر السلام العائلي في هذه المدرسة الجميلة

ويمنى تاغور بالموسيقى المختلفة ويحبها محبة شديدة ويمتد بتأثيرها القوي في التلامذة خلافاً للعارف في البلاد في المساء تجتمع الصغوف الموسيقية وتغني الاغاني المطربة ويلعب على الآلات المختلفة وتتل قطع مضحكة وتمثل روايات مناسبة تأليف تاغور نفسه وكثيراً ما يشترك معهم في التمثيل . ويمرر الطلبة جرائدهم وقد امتلأت بالرسم اليدوية والتصانيد الجميلة والمفالات المفيدة ويطالعون احسن مجلات اميركا وانكلترا ويرسلون بختلاصها الى مجلات كلكتنا فتنشر فيها فيفيدون ويستفيدون

اما تاغور فيعيش وحده في بيت خاص . ينهض باكراً مع الطلبة واحياناً قبلهم فيستحم ثم يخلو للتأمل والتفكير ثم يتناول طعام الصباح من ارز مطبوخ وبطاطس ولوبياء وزبدة وهو مولع بالمشي وبزراعة الحدائق ويمظ الطلبة والاساتذة مرتين في الاسبوع ويحب الاولاد محبة تفوق الوصف

يحكي مرة ان احد الاولاد الصغار وحمرة ست سنوات كان جالساً على ركبته يلعب بذقنه فقال له خذها يا سيدي انت تنظم التصانيد الكثيرة فلم لا تعلمني ان انظم مثلك فاجابه باطف زائد يا ولدي ان حملها متمب جيداً وكثيراً ما كنت اشعر انها تكاد تسحقني فلا احب ان اثقلك بها خصوصاً وانت لا تزال صغيراً فاجابه الولد حسناً فاسمعي اذ ان انظم التصانيد وحدي وهو الآن ينظم التصانيد وينشرها في جرائد المدرسة

ولقرين الاولاد على الزمامة والحكم الذاتي تترك لهم ادارة شؤون المدرسة الداخلية فكل يوم ثلاثاء ينتخب الطلبة قائداً لاسبوع واحد يكون فيو رئيساً للمدرسة كلها ثم ينتخب كل صف قائداً له فيلاحظ القواد تصرف التلامذة في العنوف وخارجها ثم يحاكم الطلبة امام محكمة منهم . فيظهر الطلبة المذنبون فيدافعون عن ذنوبهم او يكلفون احد الطلبة المدافعة عنهم فاذا حكمت المحكمة بتجريمهم يطلب منهم ان يختاروا قصاصهم . والقصاص يكون حرمان الطالب من اللعب لعدة ايام او العمل في الحديقة ولا يسمح للمحكمة او للقائد او للاساتذة استعمال الكلمات المشنة لهم فتظل بهذه الوسطة عرى الصداقة متينة بين الاساتذة والتلاميذ

وعلاوة على تقوية عاطفة الدين في الطلبة يصرخ الفكر لتقوية قوة التصور والملاحظة فهم يلاحظون بانفسهم نمو الحشرات والاشجار والازهار من حين ظهورها الى حين مماتها يساعد ذلك تاغور نفسه بملاحظاته المنشورة في مجلة خاصة به

والزائر لهذه المدرسة يسر كثيراً بالمعيشة المفيدة التي يعيشها هؤلاء الطلبة . فهناك فرقة تتكلم عن الشعر والعلوم . وفرقة عن حشرة من الحشرات او نبات من النباتات . وفرقة منهمكة باطعام المصافير والحيوانات . واخرى بتربية النباتات . فهم كالفزلان بمزحون ويسرحون في بينهم الجديد المملوء بالمحبة والاخوة والحرية ومع عزلتهم في البرية تراهم واقفين على حركات العلم الادبية والسياسة والاختراعية وتاغور نفسه من المولدين بمطالمة الكتب والمجلات وهو كل شهر يشقري كتاباً مفيدة في علم الادب والفلسفة والاقتصاد والسياسة والاجتماع والتاريخ . وبعد ان يقرأها يهديها الى المكتبة فيطالعها الاساتذة والتلامذة ولا يجبر احد من التلامذة على اتباع رأي في علم من العلوم بل تقدم لهم جميع الآراء وهم الحرية في اختيار اي وجه ارادوا

هذه هي مدرسة تاغور الجميلة وهي مع النقائص الموجودة فيها تجمع حسنات كثيرة تعود بالفضل الكبير على ملشها . فلعلنا نقفيس منها ما يفيد بلادنا ويرقي مدارسنا
بيروت — الكلية الاميركية
نجيب ماحم نصار